المعاني الصوتية للصيغ الإفرادية في قصيدة "الحنين إلى الجزائر" لمحمد بن أبي شنب

✍ د. أحمد مطهري
جامعة وهران 1 أحمد بن بلة

تمهيد:

إن المعاني الصوتية هي تلك المعاني التي تعبر عن اجتماع حروف معينة وفق صفاتها ومخارجها الخاصة بها، بحيث يكون تأثيرها في المعنى الإجمالي للكلمة، أي أن لكل حرف هجائي معنى يستنبط من استعمالاته الخاصة في الكلمات، ويكون هذا المعنى الصوتي إفراديا، على عكس المعنى الصوتي التركيبي الذي يجمع بين المعاني الصوتية للجذر الواحد، في حين "يتميز المعنى الصوتي الإفرادي بأنه مرن، يمكن أن يظهر في صور كثيرة، كما يفيد في تحديد المعاني الشاملة، وتحديد معاني الكلمات وأقرب طرائق استنباطه هي المقارنة بين معنى الثنائي في الفصل المعجمي وبين معاني ثلاثياته"[1]، وعلى سبيل المثال لا توجد كلمة رباعية في اللغة العربية إلا وفيها حرف ذلقي وذلك للإشارة إلى دلالة معينة في الكلمة[2].

وأما المعنى الصوتي التركيبي فيتضح من خلال تأثر المعنى العام للكلمة استنادا إلى أخذ الحروف في الكلمة مواقع معينة، مثال ذلك ما جاء عند ابن فارس في المقاييس في مادة عنى ما نصه: "العين والنون والحرف المعتل أصول ثلاثة: الأول القصد للشيء بانكماش فيه وحرص عليه، والثاني دال على خضوع وذل، والثالث ظهور الشيء وبروزه"[3].

ولا شك أن احتواء أية كلمة على حروف معينة يكسبها طابعا سمعيا خاصا عن سواها من الكلمات، مما يجعل لهذه الكلمة تأثيرا نفسيا خاصا، سببه الصوت الخاص من خلال النغمة الخاصة لحروف تلك الكلمة، فتصبح "مؤثرة في النفس إما بتكثيف المعنى، وإما بإقبال العاطفة، وإما بزيادة التوقع، فهي حينا تصك السمع، وحينا تُهيِّء النفس وحينا آخر تضفي صيغة التأثر: فزعا من شيء أو توجها لشيء، أو رغبة في شيء، هذا المناخ الحافل تضفيه الدلالة الصوتية"[4].

فنلاحظ أن حروفا معينة كوَّنت كلمات معينة، بحيث أكسبتها معاني وفق الصفات الخاصة التي تحملها تلك الحروف من همس وجهر وإطباق واستفال ... إلخ، فيقع في النفس ذوق خاص للكلمة، بحيث لا تعطيه كلمة أخرى من الجرس والنغمة والصدى والإيقاع، مثال ذلك: كلمة "صِرّ" في قوله تعالى: ﴿**كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ**﴾[5]، "إنها كلمة لا يسدُّ غيرُها مسدَّها في المعجم بهذه الدلالة الصوتية الخاصة لما تحمله من وقع تصطك به الأسنان، ويشتد معه اللسان، فالصاد الصارخة مع الراء المضعفة قد ولدتا جرسا يضفي صيغة الفزع وصورة الرهبة، فلا الدفء سيتنزل، ولا الوقاية تتجمع، بما يزلزل وقعه كيان الإنسان"[6]، فاستقلال اللفظ بحروف معينة يكسبه دلالة صوتية خاصة مؤثرة في النفس، وهذا ما يولد المعاني الصوتية التي تصافح السمع حينا وتهيء في النفس قبولا خاصا حينا آخر، ففي شعر البحتري مثلا، تشيع ظاهرة الهمس التي ترتبط غالبا بالسلام والطمأنينة النفسية، مثال ذلك قوله[7]:

صُنْتُ نَفْسِي عَمَّا يُدَنِّسُ نَفْسِي وَتَرَفَّعْتُ عَنْ جَـدَى كُلِّ جِبْسٍ

إننا نلحظ نوعا من الموسيقى الداخلية التي تنعكس من التشكيلات الصوتية للكلمات؛ لأن "الإيقاع الناشيء عن الموسيقى الداخلية التي تنعكس على التشكيل الصوتي، يعتمد على الإحساس بالدرجات الانفعالية للصوت اللغوي، فتبدو الموسيقى خافتة حين يستعمل الشاعر ألفاظا تحوي قدرا كبيرا من الصوامت الاحتكاكية المهموسة التي تعتمد على قدر كبير من البروز بالقياس إلى الأصوات المجهورة"[8]، بدون أن ننسى قضايا النبر والتنغيم اللذين لهما الأثر الكبير في المعاني الدراسية الصوتية، وغالبا ما يكون النبر والتنغيم تعبيرا عن المعاني العاطفية.

دراسة تطبيقية في قصيدة الحنين إلى الجزائر:

1- التعريف بالشاعر:

هو محمد بن العربي بن أبي شنب (1869م – 1929م)، ولد بمدينة المدية بالجزائر، أين تلقى تعليمه على يد شيوخ كثر، شغل مناصب عديدة منها أستاذ للتعليم الفرنسي بالجزائر العاصمة، ثم أستاذ للغة والأدب العربي بقسنطينة، ثم أستاذ بالمدرسة الثعالبية

بالجزائر العاصمة، ثم أستاذ بكلية الآداب بجامعة الجزائر إلى وفاته. له عدة قصائد، وكتب في النثر أيضا، وله عدة رسائل[9].

2- القراءة اللغوية الصوتية للقصيدة:

يبدأ شاعرنا افتتاحية قصيدته بالمناداة قائلا:

هلـمَّ بنا نحـــو الجزائر يا فـتى فقد ضاق بي حالي وأقعدني الوجد

فالمتأمل في هذا البيت يلاحظ اصطكاك مجموعة كبيرة من الحروف، اجتمعت في مجموعة من الكلمات، ومن بين أكثر الحروف تأثيرًا نجد حروف المد في قوله: "بنا، يا، ضاق، حالي، أقعدني"، التي أسبغت على هذه الكلمات طابعا من الجمال اللفظي، فنلاحظ شيوع الكميات الصوتية الطويلة شيوعا واضحا لصائت الفتحة الطويلة وهي الألف، فكانت ظاهرة معبرة عن الحالة النفسية للشاعر، ولعل هذا راجع إلى يسر خروج صائت الألف المدية من أقصى الحلق، فهو يعتبر من الفونيمات الأساسية التركيبية، أضف إلى ذلك أن له قيما صوتية كبيرة وهامة، بحيث إنه يقوم بوظائف صوتية وصرفية ونحوية ودلالية.

كما نلاحظ أن الشاعر أنهى عجز البيت الشعري بكلمة "الوجدُ" مضمومة الدال، ولمصطلح الضمة دلالة لغوية قوية، فهي تدل على الرفع، بحيث إن الضمة والرفعة هما مصطلحان لمفهوم واحد وهو العلو، يقول ابن فارس: "الراء والفاء والعين أصل واحد، يدل على خلاف الوضع، تقول رفعت الشيء رفعا وهو خلاف الخفض"[10]، والضمة هي "صوت طليق يحدث من اهتزاز الوترين الصوتيين مع تكتل اللسان وارتفاعه إلى أقصى درجة ممكنة نحو الحنك الأعلى من غير أن يحدث هذا الارتفاع انسدادا للنَّفَس أو تعويقا له"[11].

نفسر هذا الطرح بأن الشاعر صاح بأعلى صوته، وارتفعت نفسه جياشة ونادى الأصحاب والأحباب ليخبرهم أن هناك وطنا اسمه الجزائر ما زالت ذكراه في القلوب ولن تبرحه حتى تطأه الأجساد وتعيش في رباه هنيئة مطمئنة.

ثم يتابع شاعرنا أبياته قائلا:

هناك غزال قد غدا بسواحر وخديه يزهو الأقاحي والورد

في هذا البيت يبدأ الشاعر في تصوير أرضه الحبيبة وما فيها من سحر للطبيعة، تتمثل في حيوان الغزال الذي طالما تغنى به الشعراء منذ العصور القديمة وإلى يومنا هذا، فهو رمز الجمال والأرض والهيام، بالإضافة إلى الأقاحي وهي: "من نبات الربيع مُفَرَّض الورق دقيق العيدان له نور أبيض..الأزهري: الأقحوان هو القُراص عند العرب، وهو البابونج..الأقحوان: نبت تُشَبَّه به الأسنان.. واحدته أقحوانة ويجمع على أقاحي"[12]، وكذلك الورود التي تعبر عن التربة المتمثلة في الهضاب والسهول والجبال والوديان والجداول، أين ينبت العشب والزهر وجميع الورود.

إن المتأمل في هذا البيت يجده مرصوصا بقوة، بحروف الحلق وهي: "الهمزة في كلمة الأقاحي، والهاء في كلمة هناك، والحاء في كلمتي سواحر والأقاحي، والغين في كلمتي غزال وغدا، والخاء في كلمة خديه"، فمن أقصى الحلق عبر بحرفي الهمزة والهاء في كلمة الأقاحي، و"يسمي المحدثون أقصى الحلق بالحنجرة، وفيها الوتران الصوتيان، وهما يشبهان شفتين صغيرتين تعترضان مجرى النفس، وتتخذان أوضاعا متعددة، وينطبق الوتران عند النطق بالهمزة، وينفتحان عند النطق بالهاء"[13]. وتفسير هذا أن الشاعر في حالة نفسية شديدة، فهو بين انقباض وانفتاح، تنقبض نفسيته عندما يتذكر وطنه ويشمئز للبعد عنه، ثم تنفتح وتنشرح نفسه عندما يتغنى بثروات وجمال بلاده.

ومن أوسط الحلق عبَّر بحرف الحاء في كلمة سواحر، والحاء حرف مهموس، يقول سيبويه: "وأما المهموس فحرف أضعف الاعتماد في موضعه حتى جرى النَّفَس..."[14]، فنلاحظ أن كلمة سواحر تكونت من حرف السين المهموس ثم حرفي الواو والألف المجهورين ثم حرف الحاء المهموس ثم حرف الراء المجهور، ونقرأ هذا على أن الشاعر يمر بأزمة نفسية حادة سببها البعد عن الوطن، فتراه مرة يهمس ومرة يجهر كأنَّه يعاني من انقطاع في النَّفَس، وربما صاحبت كلماته زفرات من البكاء والأنين، ولا تقول مثل هذه الكلمات إلا نفس جياشة باكية.

فحروف كلمات الشاعر تتباين بين أقصى الحلق وأوسط الحلق وأدنى الحلق، فقد ملأ حلقه وفمه بجميع الحروف، وإنما يدل هذا على صدق الشاعر في تعبيره عن اختلاجاته النفسية ولوعته لوطنه الجزائر.

ويقول أيضا:

الأرض تروت من لجين جداول وأصوات أطيار تحن لها الأسد

يواصل الشاعر في هذا البيت تغنيه بأرضه الطيبة، حيث يصف منابع الماء وهي تروي الأرض، ومن فوقها زقزقة الطيور بكل ألوانها وبمختلف أصواتها، المُنَوِّن والشادي والمغرد والمزقزق، ثم يصف الحيوانات وهي تدبّ على هذه الأرض الطيبة، ويقتصر على أشرسها وأقواها وهي الأسود.

يستعمل الشاعر في هذا البيت مجموعة من الكلمات منتهية بحروف مخصوصة، وهي حرف الضاد في كلمة الأرض، وحرف النون في كلمة لجين، وحرف اللام في كلمة جداول، وحرف الراء في كلمة أطيار، وحرف الدال في كلمة الأسد، وكل هذه الحروف لها دلالتها الصوتية المؤثرة حسب مواقعها في كلماتها.

نبدأ بحرف الضاد وهو حرف عربي قح لا يوجد في اللغات الأخرى، ينبع من المخرج الثامن عند ابن الجزري[15]، وهو "من أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس"[16]، وعند المحدثين هو "من بين طرف اللسان وأصول الثنايا العليا"[17]، وهو حرف مجهور يهتز الوتران الصوتيان عند النطق به، رخو بحيث لا ينحبس النَّفَس في مخرجه، وهو عند المحدثين حرف شديد، وهو حرف مطبق، ومستعل لأن اللسان يعلو إلى جهة الحنك عند النطق به[18].

وقد جاء حرف الضاد في كلمة الأرض التي يقصد بها الجزائر، هذه الأرض العربية الإسلامية، فاللغة العربية من مقومات الشخصية الجزائرية، بالإضافة إلى الدين والأرض والشعب. فالجزائري حري به أن ينطق ويجهر بشدة عندما يفتخر بوطنه وهو شامخ الرأس.

وأما حرف النون فهو في كلمة لجين التي تعني الجانب والماء الكثير، وتعني كذلك معدن الفضة[19]، والنون حرف يصدر من المخرج العاشر عند ابن الجزري، وهو "من طرف

اللسان بينه وبين ما فويق الثنايا، وهي اللثة.. والنفس يجري من الخياشيم، وهي تحويف الأنف"[20]، وهو حرفُ غنَّةٍ مذلق مجهور مستفل منفتح، بين الشدة والرخاوة[21].

والمتأمل في قول الشاعر: "لجين جداول" يدرك أنه يتغنى بطبيعة بلده الجزائر، تلك الطبيعة الخلابة الرائعة، فالجداول بمائها تلمع مثل الفضة وكأنها جنة فوق الأرض، وإنما يدل هذا على شساعة الأرض ورغد العيش فيها.

وأما كلمة أطيار فهي تعني الطيور وهي جمع لكلمة طير، وكلمة أطيار على وزن أفعال، ويقصد بها الشاعر الكثرة والتنوع، وهذا دليل على شساعة الوطن وتنوع ثرواته الطبيعية والحيوانية.

وقد انتهت كلمة أطيار بحرف الراء، وهو حرف من "المخرج الحادي عشر، من طرف اللسان بينه وبين ما فويق الثنايا، قريبا من موضع النون"[22]، وهو مجهور مستفل منفتح مذلق، بين الشدة والرخاوة، وهو حرف تكرير منحرف[23].

والذي يقرأ دلالات هذا الحرف داخل هذه الكلمة يجد أن لها أثرا بالغا في توجيه معناها، فالأطيار تتصف بتكرير نغمات أصواتها وهي تزقزق مغردة فوق الأشجار، وفي جو السماء قابضة وفاتحة أجنحتها تتمتع بالأفق الرحب وبالجو الجميل، وإنما يعبر هذا عن روعة الوطن، وإنما يدل على تعلق الشاعر بوطنه وتفانيه في حبه.

وأما كلمة الأُسْد وهي جمع كلمة أَسَد، فهي تدل على القوة والسلطان، وربما دلت على الرجال وعلى الشجاعة والبطولة، وقد انتهت هذه الكلمة بحرف الدال، وهو حرف يصدر من "المخرج الثاني عشر بين طرف اللسان وأصول الثنايا العليا"[24]. وهو حرف مجهور شديد مستفل منفتح مصمت مقلقل[25].

وإذا مازجنا بين ما جاء في البيت الشعري و المادة العلمية فإننا نخلص إلى أن الشاعر أراد بلفظ الأسد القوة والشجاعة، وأراد الجهر في طلب الحق والشدة في الإصرار.

ويقول أيضا:

أَأَوْمَضَ برق أم تبدت كواكب وهب نسيم المسك وانشرح الكبد

إن المتأمل في هذا البيت الشعري يجده مرصوفا بمجموعة من الكلمات، اختارها الشاعر عن قصد ودراية ليعبر بها عما يختلج في كينونته من شوق وحب وحنين إلى وطنه الجزائر، فهو يعبر عن الأنوار التي عمت البلاد، وكأن الكواكب سطعت على الأرض، وربما قصد بها حلمه باستقلال الجزائر، بعد الظلام الدامس في ظل الاستعمار، وما قوله: وهبَّ نسيم المسك وانشرح الكبد. إلا دلالة على زوال الظلم مهما طال، وذهاب الخوف وجلاء المستعمر.

وقد عبَّر الشاعرُ بكلمة البرق التي انتهت بحرف القاف، وهو حرف يصدر من "المخرج الخامس، من أقصى اللسان وما فوق اللسان وما فوقه من الحنك الأعلى، وهو سقف الفم"[26]، والقاف حرف مجهور شديد مستعل منفتح مصمت مقلقل[27].

يدل هذا دلالة واضحة على صوت البرق الشديد المجهور، وقد عبر به الشاعر عن الثورات المستمرة من طرف الجزائريين لطرد المستعمر الفرنسي الغاشم، فمن حق الجزائري أن يدافع عن وطنه وذلك لنيل حريته.

وعبر الشاعر كذلك بكلمة الكواكب، المنتهية بحرف الباء، وهو حرف يصدر من "المخرج السادس عشر، من بين الشفتين"[28]، وهو حرف مجهور شديد مستفل منفتح مذلق مقلقل[29].

وإنما يدل هذا الطرح على أن أخبار الوطن الجزائري كانت على كل لسان، كلمات مجهورة شديدة في وقعها سهلة في مخرجها يتغنى بها القريب والبعيد، ومن قبل كان الكلام ممنوعا في ظل الاستعمار الفرنسي، وحرية التعبير مقيدة.

وانتهى البيت الشعري بكلمة الكبد، وختم البيت بحرف الدال، الذي يصدر من "المخرج الثاني عشر، مما بين طرف اللسان وأصول الثنايا العليا"[30]، وهو حرف مجهور شديد مستفل منفتح مصمت مقلقل[31].

فنقول: إن الشاعر هنا يحلم باستقلال وطنه، فعبر بهذه الكلمة ليتصوَّر الهدوءَ بعد الاضطراب، والنورَ بعد الظلمة، والطمأنينةَ بعد الخوف.

ويقول أيضا:

ديار قصور للملوك تلألأت وحل بها الحسان والفخر والمجد

ويختم الشاعر قصيدته الرائعة بهذا البيت الجميل، بحيث إن الديار المسلوبة قد تكون حرة يوما ما، جميلة يهنأ فيها العيش، ويحلو فيها الجلوس، فهي ستكون قصورا لمالكيها الأصليين بعودة الحق إلى أصحابه، وستنعم بالمجد والسؤدد.

وقد استعمل الشاعر مجموعة من الكلمات انتهت بمجموعة من الحروف على مختلف مخارجها وصفاتها، فهو يحلم بحرية الكلام الممنوعة من طرف المستعمر الفرنسي، يحلم بالجهر بالعربية وكلماتها العذبة بمخارجها وصفاتها المتميزة، وسوف يكون ذلك بعد خروج المستعمر المدمر.

خاتمة:

إن ما جئنا به من طرح إنما نود من خلاله المزاوجة بين القراءة الصَّوتية وكلمات القصيدة التي قالها الشاعر في ظرف من الظروف وفق ملابسات وخلفيات معينة، استعمل فيها أسلوبا أدبيا يحاكي أحداثا ووقائع كانت تعيشها الجزائر في فترة من الفترات، وما أردناه هو تلك القراءة اللغوية العلمية للتراث الأدبي الجزائري والتعريف بأصحابه، في فترات قيل فيها الكثير وما زال طي النسيان.

الهوامش:

1- المعنى اللغوي -دراسة عربية مؤصلة نظريا وتطبيقيا، محمد حسن حسن جبل، مكتبة الآداب القاهرة ط2005/01م، ص176.

2- يراجع المدارس الصوتية عند العرب -النشأة والتطور، علاء جبر محمد، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط2006/1م، ص30.

3- معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، تحقيق وضبط عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع1979م، ج4 ص184.

4- نظرية النقد العربي -رؤية قرآنية معاصرة، محمد حسين علي الصغير، موسوعة الدراسات القرآنية جامعة الكوفة العراق، ص34.

5- سورة آل عمران الآية117.

6- نظرية النقد العربي -رؤية قرآنية معاصرة، محمد حسين علي الصغير، ص36.

7- ديوان البحتري، دار بيروت للطباعة والنشر لبنان 1980م، ج1 ص23.

8- في النقد الأدبي، محمود محمد عيسى، مكتبة نانسي دمياط مصر، ص73.

9 - يراجع إرشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر، محمد بن رمضان شاوش والغوثي بن حمدان، دار البصائر للنشر والتوزيع الجزائر ط/2011، ج2 ص227.

10- معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، ج2 ص423.

11- المحيط في الأصوات العربية، الأنطاكي، دار الشرق العربي بيروت، ج1 ص44.

12- لسان العرب، ابن منظور، دار المعارف القاهرة، ص3540.

13- الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس، دار الطباعة الحديثة القاهرة1961م، ص89.

14- الكتاب، سيبويه، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، دار الكتب العلمية بيروت ط1/1999م، ج4 ص434.

15- الشرح الوجيز على المقدمة الجزرية، غانم قدوري الحمد، مركز الدراسات والمعلومات القرآنية جدة ط1/2009م، ص43.

16- الكتاب، سيبويه، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، ج4 ص433.

17- الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس، ص48.

18- يراجع الشرح الوجيز على المقدمة الجزرية، غانم قدوري الحمد، ص43، 44، 45، 46.

19- يراجع لسان العرب، ابن منظور، ص3999، 4001.

20- الشرح الوجيز على المقدمة الجزرية، غانم قدوري الحمد، ص36.

21- يراجع المرجع نفسه، ص43، 44، 45، 46.

22- المرجع نفسه، ص37.

23- يراجع المرجع نفسه، ص43، 44، 45، 46، 46، 47.

24- المرجع نفسه، ص38.

25- يراجع المرجع نفسه، ص43، 44، 45، 46.

26- المرجع نفسه، ص33.

27- يراجع المرجع نفسه، ص43، 44، 45، 46.

28- المرجع نفسه، ص40.

29- يراجع المرجع نفسه، ص43، 44، 45، 46.
30- المرجع نفسه، ص38.
31- يراجع المرجع نفسه، ص43، 44، 45، 46.